فكرة الوحدة الوطنية الإغريقية
من خلال خطابات إيزوقراط

ذ.عبد السلام التايب

مقدمة

في الوقت الذي حاول فيه الخطباء إعطاء دروس في فن الخطابة لأبناء الشعب الآثيني، وهجر فيه الفلاسفة الجمعيات العمومية لإعادة بناء تصورات حول العالم عن طريق التأمل والتفكير، شغل أحد المفكرين مكانا وسطا، وهو إيزوقراط الذي ترك أعمالا توخى من خلالها الحكمة وكانت ذات صبغة عملية يمكن لأي فرد قادر على التفكير استيعابها.

ويظهر من خلال حياة إيزوقراط، أن نشاطه الفكري قد تركز في ميدانين اثنين هما الخطابة والسياسة، ويعود الفضل في ذلك إلى سقراط الذي علمه فن الجدل، وإلى بعض السفسطائيين أمثال بروديكوس (Prodicos) وكورجياس (Gorgias)، ليصبح بعد ذلك كاتب مرافعات قضائية، ويفتح مدرسة سنة 393 ق.م لتلقين الفصاحة. كما أنه لم يتأخر عن نشر بعض خطاباته التي عبر من خلالها عن مواقف تجاه بعض الأساتذة المعاصرين له.[1]

وقد عرف منهاج إيزوقراط التعليمي نجاحا واسعا، بدليل العدد الكبير من الطلبة الآثينيين والأجانب الذين أخذوا عنه. وبما أنه كان طموحا ولم يكن ليكتفي بهذا النجاح في الميدان التعليمي، فقد انتقل بسرعة إلى عالم السياسة، واهتم خاصة بالسياسة الإغريقية وبالمبادئ العامة الموجهة لها. وهكذا أخذ إيزوقراط ينشر بالتدريج أعمالا

[1] - ومن بين أعمال إيزوقراط النظرية نذكر : " Contre les Sophistes " و "Eloge d'Hélène " ثم"Busiris".

خطابية، فقد ألف في سنة 380 ق.م خطابه الموسوم ب: "Panégyrique"، الذي أيد فيه الهيمنة الآثينية، ثم ألف في سنة 356 ق.م خطابه المعنون: "Sur la Paix"، الذي بدا فيه الخطيب معاديا لكل الطموحات"الإمبريالية" وفي سنة 355 ق.م ألف خطابا سماه ب: "Aréopagitique"، الذي حث فيه على ضرورة العودة إلى الديموقراطية المعتدلة. كما ألف في سنة 346 ق.م الخطاب المشهور باسم: "Philippe"، الذي عرض فيه على الملك فيليب المقدوني ضرورة تحقيق المصالحة بين المدن الدويلات الإغريقية وقيادتها لمحاربة الفرس، وقبل وفاته بقليل، أي سنة 339 ق.م، ألف خطابا آخر عنوانه: "Panathénaïque"، الذي تمنى فيه رؤية آثينا وقد استعادت دورها الرئيس والفعال إلى جانب فيليب.

وبالإضافة إلى هذه الخطابات ترك إيزوقراط بعض التآليف الصغرى، مثل: "Plataique" (بين سنتي 373و371 ق.م)، ثم" Archidamos". كما قدم مجموعة من النصائح إلى عدد من الأمراء المعاصرين له، أمثال: Evagoras و Nicoclès و Démonicos، وراسل أيضا أمراء آخرين، حيث وصلتنا رسائل باسمه إلى كل من Denys بسيراكوزة، وأبناء Jason في Phères و Archidamos و Philippe.

وعموما، أصبح إيزوقراط في آثينا بطلا لقضية سياسية كبرى هادفة إلى تحقيق وحدة الإغريق ومُوَطَدة بالعمل المشترك تحت قيادة قوية واحدة، إلا أن هزيمة Chéronée عصفت بآماله في الوحدة وقد توفي بعدها بقليل[1]، وبالرغم من تألقه في مجال البلاغة فقد لعب دورا بارزا في المجال السياسي.

1- الخطابة والسياسة عند إيزوقراط

ففيما شرع إيزوقراط في ميدان الخطابة في تلقين فنه الخطابي، كان السفسطائيون يعلمون فن البلاغة وقواعد اللغة، ويهتمون بفعالية هذا التعليم بصرف

[1] - فقد توفي عن عمر يناهز ثمانيا وتسعين سنة، إذ عاش بين سنتي 436 و338 ق.م.

النظر عن طبيعة القضايا التي يترافعون فيها، وهو ما دفع أفلاطون إلى اتخاذ موقف معارض لهذا النوع من الفنون الأدبية، باعتباره يصنع الأكاذيب ويختلق الزيف والخداع، وهو الموقف الذي تبناه إيزوقراط، غير أنه على عكس أفلاطون، لم يحرم الخطابة بشكل عام بل اتخذ لنفسه موقعا وسطا بين السفسطائيين والفلاسفة، لاعتقاده أن فن الخطابة هو أيضا فن إعمال جيد للتفكير، لذا فهو يميز بين الخطابة والفلسفة، حيث يرى بأن الكلمة وما يترتب عليها من إقناع هما "المقياس الوحيد للحقيقة، والوسيلة المثلى للارتقاء والتواصل الحضاريين"[1]، حينما جعل من اللغة "مصدر تفوق الإنسان، وعنصرا لتآلفه الاجتماعي، لأنها تساعد على ظهور المدن والدول وعلى وضع القوانين وكل الابتكارات"[2]. فاللغة هي التي تعين على التدقيق ومراقبة التفكير، فحتى كلمة"لوگوس" (Logos) في اللغة الإغريقية، تعني في نفس الوقت الكلام والتفكير، لهذا فإن الخطابة لا تعني امتلاك صيغ لغوية وطرق تعبير جاهزة غايتها التطبيق الجيد لهذه المهارات كما عند السفسطائيين وأساتذة الخطابة، لكنها تعني عند إيزوقراط التعبير عن الأفكار التي تجد استحسانا لدى الجميع بنوع من الوضوح، مدركا أهمية المساهمة بآراء منطقية في مواضيع مفيدة والبحث عن حقيقة مطلقة وجديدة، إذ يعتبر الحكمة فنا يوصل إلى أفكار يمكن أن تكون مقبولة ونافعة، حينما يقول بأنه :"(...) أمام من يدعون بأنهم يشجعون الناس على العدل والاعتدال، فإن ما ألقنه من تعاليم يعتبر صحيحا وأكثر فائدة "[3]. كما يؤمن بضرورة جعل حياة الناس أفضل وأجمل على أرض الواقع باستخدام قيم ومثل متعارف عليها، وفي ذلك يقول: "(...) فهم يحثون على ضرورة التحلي بإحدى الفضائل، وكذا إلى حكمة لازالوا هم أنفسهم يتجادلون حولها... أما أنا فأحث على فضيلة معروفة من لدن الجميع"[4].

---

[1]- Isocrate, Nicoclès, 7.

[2] - تكرر مقطع من عدة فقرات مرتين في خطابيه : " Nicoclès "، 5-9، و " Sur l'Echange "، 253-257.

[3]- Isocrate, Sur l'Echange, 84.

[4]-id, 84.

ومن ثمة، يتصور إيزوقراط أن تعلم فن الخطابة يعني تعلم أسلوب إيجاد الأفكار وتكريس النفس لخدمة قيم ومثل تكون مقبولة وفاعلة، وحينما يتوفر الفرد على هذه المهارة، يحصل على تأييد وتقدير الآخرين، إذ في رأيه، يَلحَق اللوم بالأفراد الجائرين والأشرار، في حين يكون التقدير والاحترام من نصيب الأخيار وجزاء من تحلى بالفضيلة والحكمة يكون عظيما. وهي نفس الفكرة التي سنجدها في فلسفته السياسية.

وعموما، يلاحظ تعارض في منهاج إيزوقراط التعليمي مع نظيره عند السفسطائيين الذين كانوا هم أيضا مثله أساتذة فن الخطابة، فقد تميز تعليمه بالبساطة والمرونة، مُعتبرا أن الاقتصار على التعليم النظري لتَلقين أي علم أو معرفة، غير كاف على الإطلاق، ونجاح الفرد في نظره، يعتمد على مواهبه الطبيعية التي عليه صقلها وتطويرها، حيث يقول: " فالأهم سواء بالنسبة للملقن أو بالنسبة للمتلقن، هو التمارين التي تؤدي إلى تطبيق نموذجي للمناهج التعليمية، مع التأكيد على المواهب الطبيعية للفرد والتي تحتاج إلى الصقل حتى يتمكن الخطيب من إقناع مستمعيه"[1]، لهذا فالأساس عند إيزوقراط هو التمارين التطبيقية وليست الصيغ اللغوية الجاهزة وإن كانت فعالة، ويُلح على ضرورة اكتساب كيفية اختيار البراهين والأدلة حسب الظروف والأحوال، وإحكام تنظيمها وتنسيقها وكأنها كل مترابط، مما يجعل المتلقن يُجيد الكلام والتفكير. لذا تمثل خطاباته نماذج حية لنصائحه ووصاياه، خاصة تلك الأعمال الصغرى التي تعكس أفكاره بشكل جلي والتي ألفها على منوال السفسطائيين من قبيل خطابيه " Eloge d'Hélène" و "Busiris "، فاستمر مدح جمال هيلين حاضرا في خطابه، إذ ربطه بمدحه للوحدة الإغريقية خلال حرب طروادة، هذه الوحدة التي رأى فيها جانبا من أفضال هيلين على بلاد الإغريق.

---

[1]- Sur l'Echange, 188-189.

وقد دفع هذا الميل إيزوقراط إلى النظر بعيدا من خلال إنتاج خطابات على شاكلة الخطابات الأولمبية الكبرى لكل من كورجياس (Gorgias) و ليزياس (Lysias)، كما ألف خطابات هيلينية غنية بالنصائح والتوجيهات المستقاة من التاريخ ووجهها لسكان المدن الدويلات الإغريقية، مسخرا لخدمة هذه القضية العادلة كل إمكانياته ومهاراته في فن الخطابة، بما في ذلك براعة الأسلوب، ليس " (...) بهدف خداع جمهور المستمعين ولكن لمساعدتهم والرقي بهم إلى أفضل المراتب "[1]، واعتمد إيزوقراط في تأليفه للخطابات على المعرفة والمهارة " بلغة سليمة وخالصة ومنقحة ومتناسقة، وكأنها قصيدة موزونة تصاحبها موسيقى وإيقاع"[2].

إن ما اكتسبته تآليف إيزوقراط النثرية من مقام رفيع واستحقاق لا يضاهى، جعلته يبتكر أسلوبا أدبيا خاصا به، واعتبرت خطاباته نموذجا يحتذى به من طرف خطباء آتيكا وكل المهتمين بالأدبيات الكلاسيكية. ومع ذلك لم يكن لتلك المزايا الأدبية أي معنى في نظر أيزوقراط، إلا إذا وضعت في خدمة القضية السياسية والأخلاقية التي يدافع عنها لمصلحة الإغريق جميعا.

أما في مجال السياسة، فإن الشيء الجديد الذي ميز الفكر السياسي لدى إيزوقراط وأيضا الفكر السياسي السائد خلال القرن 4 ق.م، هو تركيزه ليس على آثينا وإنما على عموم بلاد اليونان، إذ لا يوجد ضمن مجموع تآليفه إلا خطاب واحد هم السياسة الداخلية الآثينية، تحت عنوان :" Aréopagitique"، الذي ألفه بين سنتي 356و354 ق.م. وقد برر إيزوقراط اهتمامه هذا بكونه ناتج عن قناعته بأن" السياسة الداخلية التي تنهجها آثينا هي التي قد تدمر كيانها في بلاد الإغريق"[3]، واعتبر دعوته إلى إحداث إصلاح داخلي وسيلة أساسية لخدمة السياسة الهيلينية. وقد استوحى إيزوقراط

[1]- Isocrate, Panathénaïque, 246.
[2] -Ibid, Sur l'Echange, 46.
[3]-Ibid, Aréopagitique, 12.

عنوان هذا الخطاب من إحدى المؤسسات الدستورية الإغريقية العتيقة : "Aréopage" أي مجلس الشيوخ، حيث تمنى لو استعاد هذا المجلس صلاحياته في المجال الأخلاقي، مما يدل على أن تخوفاته من انحرافات وتجاوزات الممارسة الديموقراطية، جعلته يأمل في "الرجوع إلى دستور الأجداد "[1] الذي طالب به المعتدلون وعلى رأسهم تيرامين (Théramène). وحتى إن كان يُذكِر ببعض الإصلاحات في هذا الاتجاه، فقد ألح على ضرورة مباشرة إصلاح في الميدان الأخلاقي، لأن أحوال المدن لا تنتظم عن طريق المراسيم وحدها، ولكن بواسطة التقاليد والأعراف. كما كان تواقا إلى سيادة الود والتفاهم بين الأغنياء والفقراء، وأن ينتعش الحس الوطني بين الأفراد، موضحا أن الأريوباج في السابق، كان يسهر على نشر القيم القديمة، كاحترام الآخر والتحلي بميزة الاعتدال، التي لولاها لما استطاعت آثينا أن تكون في مستوى دور الريادة الذي أنيطت به في الماضي ببلاد الإغريق.

وبالرغم من أن إيزوقراط قد ركز على السياسة الداخلية للمدينة، فإنه يبدو بوضوح غلبة النزعة الأخلاقية على تفكيره الذي شمل عموم بلاد الإغريق، إذ لم يتوقف الخطيب عن اعتبار وجود علاقة وطيدة بين السياستين الداخلية والخارجية. وقد لاحظنا أن مفكري بداية القرن 4 ق.م، لم يعودوا يبدون أي اهتمام بالحياة العامة، حيث اقتصرت إنتاجاتهم على التفكير النظري فقط، وهو نفس الاتجاه الذي نجد ضمنه إيزوقراط نفسه الذي يتوخى الابتعاد عن أي تصورات عملية، وكذلك بسبب ما لاحظه" من فوضى عمت السياسة الداخلية"[2]وما تشكله من عراقيل تحول دون تحقيق

---

[1] - إيزوقراط، Aréopagitique، 20-27، حيث عرف الخطيب بهذا الدستور، وذكر المبادئ التي قام عليها والمتمثلة في المساواة والحس الوطني القوي.

[2]- Isocrate, Sur la Paix, 49 -56.

حلمه[1]، دون أن يمنع هذا الابتعاد المنظرين عن الحياة العامة من تقديم آرائهم حول السياسة.

ومرد ذلك أن تلك المرحلة تميزت بالانتقال من حضارة المدينة إلى حضارة الدولة، وبقرب عصر الملكيات الهيلينستية الكبرى، وقد كان إيزوقراط من بين المدافعين عن هذا التيار، دون أن يصل الأمر إلى حد قضاء الإمبراطورية على دولة المدينة، وفي ذلك يبدو إيزوقراط مبدعا حينما وفق بين الوحدة الهيلينية وبين نزعة المدينة إلى الاستقلال في إطار النموذج الكونفدرالي.

ومن جهة ثانية، كان فلاسفة القرن 4 ق.م في بحث مستمر لإيجاد نموذج للدولة المثالية، إما عن طريق تعويض دساتيرها القائمة بأخرى جديدة أو بإصلاحها جذريا. لذا فإن المفكرين السياسيين في بداية القرن4 ق.م، كانوا متفقين في انشغالاتهم السياسية على خلق توازن اجتماعي يضمن السعادة وسلامة المواطن، فما كان يهمهم أكثر في بحثهم عن المدينة السعيدة، هو ضمان توازن اجتماعي مبني على توزيع عادل ومتساو لخيرات البلاد، أو على الأقل إزالة الغنى الفاحش والفقر المدقع[2]. وكان إيزوقراط منسجما في خطاباته مع هؤلاء المثقفين، حيث رأى أن" أي إصلاح لابد له من الرجوع إلى "دستور الأجداد"(Politéia Patrios)، لأن أفضل القوانين في نظره هي التي وضعت في الماضي".[3]

وأهم ما يثير الانتباه عند تناول أفكار إيزوقراط حول تنظيم الدولة، هو الأهمية التي أولاها للقضايا الأخلاقية، إذ في رأيه لا تختلف الواجبات ذات الصبغة الأخلاقية بين الدولة والأفراد، وأن التحلي بالاعتدال واحترام القواعد هي من أسمى

---

[1]-Will.E, Le monde grec et l'orient: Le 4ème siècle et l'époque hellénistique, Paris, 1972, p.97.
[2]-Mossé.C, .La fin de la démocratie athénienne, Paris, 1962, p.238.
[3]-Aréopagitique, 14-16.

الخصال الحميدة، في حين تعد المغالاة وغياب الحكمة من النقائص التي يجب تجنبها[1]، وأن اتخاذ الحذر والتمعن قبل تنفيذ التدابير من الأساسيات التي تضمن رقي الأمم[2]. وقد اعتبر إيزوقراط هذا المستوى الأخلاقي هو أساس الحياة السياسية، ومن ثمة فإن إصلاح الدولة يجب أن يكون أخلاقيا. ويمكننا تحديد ثلاثة خطوط عريضة تُجملُ مَثَلَهُ في السياسة إلى حدود سنة 356 ق.م:

- أولا: توجيه دعوته إلى النزهاء من القادة السياسيين لتوحيد آرائهم المتباينة وتحقيق وفاق وطني. - ثانيا: نهج سلوك معتدل تجاه الحلفاء.

- ثالثا: البحث عن استجلاب تقدير الشعب واحترامه، ففي رأيه ليس هناك انفصال بين السياسة والأخلاق.

كما نلاحظ، فإيزوقراط ينأى عن الخوض في تفاصيل استعراض وسائل التنفيذ، حيث صرح في خطابه المعنون ب:" Panathénaïque" بأنه لا يبالي بالقضايا المؤسساتية، ليتنبه بعد ذلك إلى أن الجوانب الأخلاقية وحدها غير كافية في تكوين الدول، ويبقى العنصر الرئيس في ذلك هو التنظيم السياسي، حيث يقول: " إن الدستور هو روح الدولة".[3]

لكن لنا أن نتساءل عن النظام السياسي الذي يتوجب على الدولة الآثينية أن توجه فيه إصلاح مؤسساتها: الملكي، الأوليغارشي، الديموقراطي، وبالنظر إلى فكر أغلب منظري القرن 4 ق.م، يبدو أنهم كانوا كلهم يؤيدون النظام الملكي ومن هؤلاء نذكر: Xénophon و Platon، في حين أن الدوافع السياسية لإيزوقراط والتي جعلته يبحث عن قائد للكونفدرالية، أجبرته على قبول الملكية بهدف توحيد الإغريق على أساس الحفاظ على سيادة المدن الدويلات، ومع ذلك فإنه يعتبر أن هذا النظام" لن يكون

---

[1]-Aréopagitique, 24-27.et Sur la Paix, 119-120.
[2]- Aréopagitique, 12-13.
[3]-id, 14.

صالحا بالنسبة للإغريق وإنما للأجانب فقط"[1]، ومن ثمة، نلاحظ محدودية تعاطفه مع النظام الملكي.[2]

أما بخصوص السياسة الداخلية، فإن إيزوقراط يؤكد على سمو النظام الديموقراطي[3]الذي" لا يمكن أن نُحَمِله مسؤولية أخطاء الهيمنة البحرية الآثينية"[4]. لذا فإن ما يتوقعه من إصلاحات هي" جزئية وتحتاج إلى مزيد من الوقت، ويتطلب إتمامها تغييرا شاملا للجهاز السياسي الآثيني".[5]

وعموما، لا يبدو إيزوقراط مؤيدا للملكية أو للأوليغارشية كما لا يؤنس بوجود شكل واحد للديموقراطية، إذ كان ديموقراطيا معتدلا داعيا إلى إصلاحات جزئية ذات صبغة أخلاقية أكثر منها مؤسساتية أو دستورية. ففي نظره يمكن، من الناحية المبدئية، تصور دولة مثالية بدون أن تكون متوافقة مع دستور الأجداد، لأن العنصرين معا يمتزجان" لإعطاء دستور يقدم أفضل الامتيازات"[6]، حيث يمتلك الشعب، في ديموقراطية إيزوقراط، الأدوار الرئيسة، كما تمثل فيه المساواة "Isonomia" إحدى خصائص المدينة الإيزوقراطية. لهذا فعلى المواطنين التحلي بالوفاء لما فيه مصلحة الدولة، والمقصودون في نظره، بهذا الإخلاص بالدرجة الأولى هم المسؤولون عن شؤون الدولة[7]، حيث أكد في أحد خطاباته بأن" القضاة، في فترة ماراطون وسالامين، كانوا يهتمون بالشؤون العامة على حساب مصالحهم الخاصة بسبب حسهم الوطني الرفيع"[8].

وهكذا يبدو لنا إيزوقراط قد أولى اهتمامه بعدد من قضايا الحياة السياسية والاجتماعية الآثينية، في حين تغيب في خطابه المسمى ب: "Aréopagitique" أفكار

[1]- Philippe, 107.
[2]-.Mthieu (G), Les idées politiques d'Isocrate, Paris, 1966, p.134.
[3]- Lettre 6 ; 11.
[4]- Sur la Paix, 97.
[5]- Id, 133.
[6]- Nicoclès, 12.
[7]- Mathieu, op.cit, p.141.
[8]- Panégyrique, 79.

سياسية كبرى، كما لم يتصور دولة مثالية كما فعل أفلاطون. ومع ذلك فقد اقترح إيزوقراط حلولا لعدة مشاكل اجتماعية عاجلة بطريقة عملية، وطرح آراء دقيقة حول النظام الديموقراطي الآثيني، إذ صرح" بعدم فعالية القوانين بدون توظيف أخلاقي للتقاليد والأعراف، كما أن أساس أي إصلاح يبدأ بتقويم سلوك وثقافة المواطنين الذين يجب تربيتهم على العدالة"[1]. لذا لا يمكن أن ينعت بالمتوهم أو بالخيالي من ظل يحث الآثينيين على التحلي بالمبادئ السامية والقيم الأخلاقية، أو بأنه أنتج عملا بدون جدوى ولا فائدة، بل على العكس من ذلك، فقد كان إيزوقراط على إطلاع بما كتبه مفكرو القرن 4 ق.م، وعلى رأسهم أفلاطون وكزينوفون وأرسطو، لذا يجدر بنا اعتبار إيزوقراط مفكرا ذا مكانة مرموقة في تاريخ الفكر السياسي الإغريقي وليس رجل خيال.

2- برنامج الوحدة الهيلينية عند إيزوقراط

لم يكن تأثير الأفكار السياسية لإيزوقراط بالشيء الجديد على الإغريق في بداية القرن 4 ق.م، بل عرفت البلاد الإغريقية خلال القرن 5 ق.م تكوين عدة اتحادات سياسية أو دينية أخرجت الإغريق من الحدود الضيقة لدولة المدينة، وجعلتهم يشعرون بنوع من الوعي بوحدتهم الثقافية والأخلاقية.

فقد تمثلت المحاولة الأولى للوحدة في الحلف الذي وحد أغلبية شعوب بلاد الإغريق القارية لمقاومة غزو الملك الفارسي كزيركسيس (Xerxès)، لتأخذ شكلا أوسع وأمتن في سنة 480 ق.م، لدرجة أننا نجد هيرودوت يذكر بنوع من الاعتزاز والفخر، المدن التي حاربت في سالامين (Salamine)[2]، حيث أدرك الإغريق خلالها ضرورة تحركهم كقوة واحدة وخلق كيان يوحد شملهم[3]. حتى وإن كانت سلوكات بعض قادة الدول قد عرقلت مسيرة هذه الوحدة وبرهنت على استمرار روح النزعة الفردية بين

---

[1]- Aréopagitique, 41.
[2]- Hérodote, Les Histoires, Livre 8, 43-48.
[3]- Mansuelli (Guido.A), Les civilisations de l'Europe ancienne, Paris, 1967, p.175.

الإغريق، فجيلون (Gélon) مثلا، طاغية سيراكوزة ثم حكام مدينة أركوس (Argos)، كانوا يطمعون في قيادة الإغريق في الحرب ضد الفرس كشرط للانضمام إلى الحلف[1]، ثم سكان بيوسيا الذين تحالفوا مع الفرس أعداء الإغريق[2].

لكن على الرغم من ذلك، كانت لهذه الوحدة نتائج إيجابية، إذ لأول مرة يتحرك الإغريق جماعة لتحقيق مكاسب عظيمة، وقد وقف إيزوقراط مطولا عند الحروب الميدية، وهي فترة الدعاية لخلق الوحدة من أجل الدفاع الوطني[3]، حيث كانت صفة شهامة الآثينيين خلالها، الحجة الأساسية في موضوع الدعاية الآثينية لتبرير حق الآثينيين في الزعامة على الإغريق[4]. لهذا فما أثار حفيظة العالم الإغريقي ليس هو تكوين حلف ديلوس ولكن ما آل إليه من تطورات في الفترة اللاحقة، حيث تحول من هيمنة مقبولة من طرف الحلفاء إلى إمبراطورية مبنية على القوة، فقد ظهر منذ البداية أنه كان حلفا غير عادل، كما تدل تسمية "هيمنة" على ذلك، لأن حرية الحلفاء أصبحت محدودة أمام قوة المدينة المهيمنة[5]، لتتحول هذه القوة إلى كراهية تجاه الحلفاء، خاصة أولئك الذين تمردوا من أجل الانفصال عن الحلف. ويعتبر المؤرخون المعاصرون هذه الكراهية من أهم أسباب الهزيمة النهائية لآثينا في الحرب البيلوبونيزية[6] والتي سبق لتوسيديد أن قدمها كحرب "إمبريالية"، إذا ما اعتبرناها في نفس الوقت الدافع والوسيلة والرهان[7] حيث أن هذه الحرب قدمت "كتفسير حقيقي لنشوبها"[8]، وهي الدافع لاتخاذ إجراءات زجرية مبالغ فيها[9]، كما أن إعلانها جاء لتبرير الزيادة في التوسع.

---

[1]- Hérodote, op.cit, Livre 7, 148-152.
[2]- Id, 205, 222, 233.
[3]- Matieu (G), op.cit, p.10.
[4]- Romilly (J De), Thucydide et l'impérialisme athénien, Paris, 1947, p.286.
[5]- Lévy (E), Athènes devant la défaite de 404 av-jc, Histoire d'une crise idéologique, Paris, 1976, p.70.
[6]- Sur la Paix, 78,105.
[7]- Romilly (J De), op.cit, p.38.
[8]- Thucydide, Livre, 1, 23,6.
[9] - حيث تعرض سكان كل من Mélos et Mytilène إلى القمع عند إعلانهم التمرد والانفصال عن حلف ديلوس.

إن السلم الحقيقي بالنسبة لإيزوقراط، هو ذلك" السلم العادل الذي يشمل كل المدن الإغريقية التي عليها المشاركة في اتفاقيات التحالف مع المحافظة على استقلالها"[1]، وسلم كهذا لا يهدف إلى إيقاف الصراعات لفترة محدودة بين مدينتين أو مجموعة من المدن، ولكن تكون غايته خلق نظام قانوني ينظم علاقات المدن الإغريقية على أساس من العدل والمساواة.

وقد شكل هذا النظام، الذي يمكن من إخضاع السياسة الخارجية للأخلاق، أكبر أمل تمنى إيزوقراط تحقيقه مضفيا على المفهوم التقليدي للاعتدال، فكرتين من أهم أفكار الأخلاق الوطنية هما: السلم والوفاق الوطني[2]، حيث دعا حينئذ كلا من اسبارطا وآثينا إلى احترام متبادل لسيادتهما وتوجيه قوتهما ضد الفرس[3]. لكن لما كان يريد أن يجعل من هذا النظام وسيلة لغزو آسيا الصغرى وتحويل طاقة وعدوانية المدن الإغريقية ضد الفرس، فإنه يكون قد حث في هذه الدعوة على أيديولوجية القوة التي تدفع إلى السيطرة على بلاد الإغريق نفسها[4]، في حين لم يكن يرى في هذا الغزو مرحلة نحو السيطرة على العالم، بقدر ما كان وسيلة لتحقيق الوفاق بين المدن[5] وتخليص بلاد اليونان من فائضها البشري وحل كل مشاكلها الاجتماعية[6]، وهو حل توفر لدى الإغريق في السابق في مستعمراتهم الأيونية[7].

1-Sur la Paix, 16.

2- Eloge d'Hélène, 23-25; Panégyrique, 26-61; Sur l' Echange, 66.

3- Panégyrique, 17; Philippe, 9.

4 - وهو المعنى الذي أعطاه الآثينيون للحملة على صقلية خاصة توسيديد، المصدر، الكتاب السادس، فقرات 4و18.

5 - غالبا ما يجمع إيزوقراط بين فكرتي وفاق الإغريق والحرب ضد الفرس مثلا Panégyrique، 3. فإذا كان الوفاق أساسي لإعلان الحرب، فإن استمراره غير مضمون إلا بالانتصار على الفرس: Panégyrique، 173 . من هنا قد لا نتفق مع المؤرخة C.Mossé في مؤلفها : La fin de la démocratie athénienne, Paris, 1962, p.436. ، حينما أكدت بأن" وحدة الإغريق ما هي إلا وسيلة، لأن الهدف الرئيس هو غزو آسيا"، في حين أن وفاق الإغريق هو في نفس الوقت وسيلة وهدف أساسي للغزو.

6- Panathénaique, 5, 167.

7- حيث مكن استعمار أيونيا الإغريق من أراضي شاسعة للاستيطان هناك : Panégyrique، 34-36.

وبموازاة مع تجربة الوحدة الهيلينية في إطار حلف ديلوس، قامت عدة محاولات وتجارب اتحادية أخرى خلال القرن 5 ق.م، دون أن يرافقها تأثير حقيقي على التجارب الفدرالية الإغريقية. ومع ذلك فقد تركت كل هذه الأحلاف المندثرة بسبب تمردات الإغريق عليها، ذكريات تبعث على الاعتزاز والافتخار، وهو ما يفسر تكريس إيزوقراط الآثيني لكل حياته من أجل إيقاظ شعور المواطنين وتهييئه مرة أخرى للوحدة على نطاق أرحب.

وقد استلهم عدد من الأدباء الإغريق أفكارهم من تجارب التحالفات الإغريقية خلال القرن 5 ق.م، فكانت غايتهم من خلال كتاباتهم، تقوية تلك التجارب وتحفيز الإغريق على خلق تجمعات جديدة ونهج نفس السياسة التي مكنتهم، في الماضي، من إبعاد الخطر الفارسي عنهم. وتدخل في هذا السياق مسرحية إيشيل (Echyle) المسماة "بالفرس" "Les Perses"، التي نوه فيها بحلف ديلوس الذي "تأسس لضمان تحكُم الإغريق في البحار وحماية المواطنين من غزو فارسي محتمل"[1]. كما خصص هيرودوت من جهته، مؤلفه المعروف باسم: "Les Histoires"، للحديث عن الصراع الإغريقي الفارسي، مبينا القواسم المشتركة التي" توحد الإغريق فيما بينهم، مثل وحدة العرق واللغة والدين والحضارة"[2]ومسجلا كل الأفكار التي سيعتمد عليها إيزوقراط فيما بعد. ولا ننسى أيضا أريسطوفان (Aristophane) ، الذي شدد في مسرحيته المشهورة بعنوان: "السلم" "La paix"، على ضرورة تحقيق السلام بين المدن الإغريقية مركزا على وحدة الدم بين الإغريق، وأن العدو المشترك هم الفرس الذين حاربهم في الماضي كل من الإسبارطيين والآثينيين.[3]

---

[1]- Mazon (P), Eschyle, pp. 55-60.
[2]- Hérodote, op. cit, Livre 8, 144.
[3]- Aristophane, Lysistrata, 342.525.

ونتبين آثار هذه الأفكار لدى المفكرين اللاحقين من أمثال أرسطو[1] وإيشين (Eschine) وأند وسيد(Andocide)[2]، ومن مميزاتها الحث على نهج سياسة السلم تجاه الآخرين، واستبعاد كل سياسة عدوانية أو توسعية من شأنها تحقيق الازدهار الاقتصادي. وقد كان لمثل هذه الأفكار تأثير مباشر على فكر الخطيب إيزوقراط، خاصة وأن أحداث نهاية القرن 5 ق.م، قد قوت النزعة الفردية لدى المدن الدويلات الإغريقية، مما أدى إلى اهتمام المفكرين بالسياسة الخارجية للدول وبالتالي إلى خلق نوع أدبي جديد هو " الخطاب الأولمبي" الذي يمعن فيه الخطيب نظره في السياسة العامة لبلاد الإغريق[3]. وقد كانت أولى محاولات هذا النوع لكورجياس (Gorgias) في سنة 392 ق.م، حيث دعا الإغريق في خطابه الأولمبي إلى تحقيق مصالحة وطنية وإعلان حرب ضد الفرس. وقد أثرت هذه الدعوة في فكر إيزوقراط وهو تلميذ لكورجياس، مما دفعه إلى تأليف خطابه الشهير باسم "Panégyrique "، الذي ردد فيه أفكار كورجياس الهيلينية وذكر بأمجاد الحروب الميدية[4]. وقد ترددت نفس الدعوات لدى خطباء معاصرين له من أمثال ليزياس Lysias، الذي ألف هو الآخر خطابا أولمبيا في سنة 388 ق.م، حث فيه الإغريق على ضرورة الاتحاد لمواجهة الخطر الفارسي، وهي نفس الأفكار التي تناولها إيزوقراط في خطابه المعروف ب: " Philippe" مع مؤاخذته للإغريق على انقساماتهم وحروبهم الجانبية، مبرزا الحالة المزرية التي وصلوا إليها بسبب ذلك.

وهكذا، نلمس أن الأرضية الفكرية التي قامت عليها دعوة إيزوقراط إلى وحدة الإغريق أصبحت مهيأة في بداية القرن 4 ق.م، حيث بدا إيزوقراط متأثرا فيها بتآليف من سبقوه من الخطباء، مقتبسا منهم عصارة أفكارهم السياسية وأحيانا صيغهم التعبيرية، لكنه تميز عنهم بما أولاه من أهمية كبرى لقضايا السلم والوحدة الوطنية

[1]- Aristote, Constitution d'Athènes, Introduction, p. 6-
[2]- Mathieu (G), Survivances des luttes politiques du 5ème S av.jc chez les orateurs attiques du 4ème S av.jc, Revue de Philologie,1914, n.38,pp.190-194.
[3]- Mathieu, Les idées politiques d' Isocrate, p. 23.
[4]- Id, p. 25.

والحرب ضد الفرس. ولعل أبرز ما شغل فكر إيزوقراط، ذلك الحرص المبالغ فيه على تنفيذ سياسة وحدة هيلينية مبنية على فكرة أخوة الإغريق ووحدة مؤسساتهم ومساعيهم المشتركة. وليست هذه الفكرة بجديدة على عصر إيزوقراط، بل وجدناها مبلورة عند كل من هيرودوت وأريسطوفان وكورجياس بهدف مقاومة الفرس، إذ تم إحياؤها من طرف إيزوقراط بموازاة مع تزايد نفوذ الملك الفارسي نتيجة لمعاهدة السلم التي عقدت بينه وبين المدن الإغريقية سنة 386 ق.م، خاصة وأن الحرب البيلوبونيزية قد أعطت الدليل على ما ترتب عن حالة الشقاق والانقسام، من مآس ونتائج كارثية ليس فقط على آثينا ولكن على معظم أرجاء بلاد الإغريق، والتي أصبحت عاجزة عن حماية حريتها فاضطرت إلى الخضوع للهيمنة الإسبارطية[1]. وقد أخذت هذه الفكرة حجما أكبر ابتداء من سنة 380 ق.م، مع خطاب إيزوقراط المسمى ب: "Panégyrique"، حيث شكلت منذئذ إحدى الركائز الأساسية لفكره.

وتسير فكرة الوحدة الإغريقية عند إيزوقراط مع فكرة الحرب ضد الفرس في خطين متوازيين، وفي ذلك يقول: "(...) إذا لم نقم بحرب جماعية ضد الفرس فلن ننعم بسلم و صلح دائمين"[2]، وبذلك ستتحقق الوحدة والمجد اللذان سادا فترة الحروب الميدية، وسوف يتحرر الإغريق الذين ما زالوا يرزحون تحت وطأة الاحتلال الفارسي. ويمكن لهذا المشروع أن يتحقق حين توجد قوة سياسية أو قائد مناسب لقيادة الإغريق، وكانت أولى الأفكار المستخلصة من ذكريات الحروب الميدية، هي تفويض آثينا مهمة القيادة هذه.

[1]- Lévy (E), op.cit, p, 47.
[2]- Panégyrique, 173.

3- السلطة والتاريخ عند إيزوقراط

هيمنت خلال القرن 4 ق.م على المدن الإغريقية فكرة مفادها أن العداء بين العالم الإغريقي والإمبراطورية الفارسية شيء طبيعي، وكان الإغريق واعين بضرورة تماسك وحدتهم ضد العدو الفارسي[1]، وكلما تعلق الأمر بمقابلة بينهم وبين الأجانب إلا وتأكد لديهم هذا الإحساس بشكل جلي، لهذا حث إيزوقراط على ضرورة محاربة الفرس، لأن ذلك يعتبر الوسيلة الأنجع للَفت انتباه الدول الإغريقية إلى مصالحها وأهدافها المشتركة. وهنا تصبح الحرب في نظره، واجبا مقدسا على كل المواطنين، مع نفيه لأية قواسم مشتركة بين الإغريقي وبين الفارسي، لأن الفرق بينهما شاسع كالفارق الموجود بين الإنسان والحيوان. فالإغريقي في نظره، "يملك فن المنطق وملكة التعبير بدرجة تفوق ما يمكن للأجنبي بلوغه"[2]، كما أن هذا الأجنبي لا ينعم بالحرية، ويفتقر إلى الإطار السياسي (أي دولة المدينة) الذي يسمح له بممارستها، حيث لكل مواطن نصيب من المسؤوليات. وبالنسبة لإيزوقراط فإن هذه الحرية وهذه المسؤولية، سواء في الساحة العمومية أو في الجمعية الشعبية، مرتبطتان بفن البلاغة وبديع الكلام، حين يقول: "(...) بأن المواطنين الذين ترعرعوا في جو مفعم بالحرية، لا يعرفون بشجاعتهم أو بغناهم، ولكن بخطاباتهم الرفيعة التي تعتبر دليل حسن تربية كل واحد منا"[3]، لأجل كل هذا، وجب على الأجانب الخضوع للإغريق كما يخضع العبيد لإرادة أسيادهم.

وتبقى النتيجة المنطقية لهذه الأفكار، هي إيمان إيزوقراط بضرورة محاربة الفرس، وهي الحرب التي ستخدم لا محالة بلاد اليونان، إن على مستوى السياسة الخارجية أو فيما يتعلق بتنظيمها الداخلي، مثلها مثل الحروب الميدية، لأنها ستعطي للإغريق وعيا بوحدتهم وتزيل عنهم كل أشكال النزعة الفردية استعدادا لتحقيق وحدة هيلينية

---

[1]- Baslez (Marie-Francoise), Le péril barbare, une invention des grecs, Paris, 1986, p. 287 et suiv.
[2]- Sur l'Echange, 293.
[3]- Panégyrique, 49.

حقيقية[1]. وقد سبقت هذه الحرب التي دعا إليها إيزوقراط، حروب أخرى اتخذها كأمثلة حية للتذكير بها، من حين لآخر، في الحث على محاربة الفرس[2]، وهو بذلك يُشعِرنا بأنه استفاد من التاريخ ومن الأساطير لبلوغ غايته، معتبرا حرب طروادة النموذج الأمثل المعتمد في محاولته جاهدا إقناع الإغريق بإعلان الحرب ضد الفرس، كما لم يتوقف عن التذكير بما أسداه الملك أكاميمنون (Agamemnon) من خدمات جليلة لبلاد الإغريق التي وحدها وضمن لها الحرية والسيادة على ترابها وعلى مواطنيها[3].

وتستند نظرية السلطة عند إيزوقراط إلى دور ومدى تجاوب المواطنين، أي أن ضمان استمرار أي سلطة، يعتمد بالأساس على إخلاص ووفاء المواطنين لها، وعلى عكس ذلك، فمن لم يحسن التصرف تجاه الشعوب الأخرى، سيجني عداوتها وأحقادها، وخير مثال على ذلك هو حصول آثينا على مركز القيادة برضى المدن الإغريقية بعد الحروب الميدية، غير أنها فقدت فيما بعد إمبراطوريتها نتيجة الثورات العنيفة ضدها وما تلاها من مجازر رهيبة نفذتها آثينا ضد شعوب تلك المدن المتمردة. ويضيف إيزوقراط، في خطابه المعنون ب: " Sur la Paix "، دليلا آخر يتجلى في أن اسبارطا هي الأخرى، قد مارست، بعد آثينا، هيمنتها على بلاد الإغريق، فكان رد فعل حلفائها هو رفض هذه الهيمنة، مما ترتب عنه فقدانها لهيبتها وقوتها. وليس في هذا ما يدهش، "حيث أخذتهما(آثينا وإسبارطا) نشوة القوة فأوقعتهما في نفس الأخطاء"[4] وأضحت حالتهما شبيهة بحالة الطغاة الذين، بتسلطهم على الشعوب، سقطوا في مزالق جعلت أنظمتهم هدفا للثورات والانقلابات. فسياسة القوة، التي لم تكن ممارستها مقبولة إلا خارج العالم الإغريقي، كانت مرفوضة داخله باسم الأخلاق والمصلحة المشتركة والتضامن الهيليني. وقد كانت مثل هذه الأفكار حول الوحدة الإغريقية،

[1]- Panégyrique, 173. Philippe, 9.
[2]- Panathénaïque, 246.
[3]- Id, 76-83.
[4]- Sur la Paix, 104.

معروفة منذ النصف الثاني من القرن 5 ق.م، بلورها عدد من المفكرين والأدباء أمثال أوريبيد (Euripide) و أريسطوفان (Aristophane)...[1]

وتدل هذه النظرية على أن كل سلطة أو قوة، يجب أن تكون متسمة بالعدل والمرونة حتى تضمن نجاحها واستمرارها، وقد ظل إيزوقراط يردد هذه النظرية على مسامع الأمراء الذين توجه إليهم بخطاباته ومراسلاته، وعلى رأسهم الملك المقدوني فيليب، الذي تمنى إيزوقراط أن يكون نِعم القائد والمنصف للإغريق، لينال احترامهم وتقديرهم. وقد استنبط إيزوقراط من هذا التضاد البسيط والواضح في معناه، درسا من أحداث التاريخ، وإن لم يكن بالتأكيد مؤرخا إلا أنه فكر بطريقة المؤرخين، فاستخلص من التاريخ البراهين التي أوَّلَها بحسب الظروف والمواقف، فجاءت متباينة أحيانا من خطاب إلى آخر، مُدشنا بذلك شكلا جديدا للتفكير.

إن الأزمة الأخلاقية والأيديولوجية التي سادت آثينا من جراء الحرب البيلوبونيزية، قد دفعت بالمثقفين إلى اللجوء إلى الماضي لاستخلاص العبر والدروس، كما أثارت لديهم الرغبة في إحياء الوحدة الضائعة وخلق مشاعر الود والتسامح[2]، واعتبار الانقسامات مصدرا للمآسي أو على الأقل عرقلة يصعب تخطيها، فيما نجد أن الخطيب أند وسيد(Andocide)لم يقف عند حد هذه الرؤية المتشائمة، بل فضل اعتبار الانقسامات " سبب المصائب والأحزان التي تؤدي حتما إلى خلق الحب والوفاق، وهي بالتالي القادرة على ضمان السلم داخل المدينة"[3]. ونجد هذه الصورة واضحة أيضا في أحد خطابات إيزوقراط الذي وضح فيه بأن الفوضى والشقاق هما شر في حد ذاته، لكنهما أجبرتا بعد ذلك الآثينيين على عقد اتفاقيات توافقية[4]، تؤدي إلى" استتباب روح

[1]- Lévy (E), op.cit, p.157.
[2]-Id, p. 209.
[3]- Andocide, Mystères, 40.
[4] - الاتفاقات المقصودة هنا هي التي أعقبت الحرب البيلوبونيزية بين الديموقراطيين والأوليغارشيين لإقامة حكومة ديموقراطية معتدلة، انظر : Contre Callimachos، 44.

الود والوئام"[1]، تكون من نتائجها اجتناب حرب أهلية بين المعتدلين والمتطرفين وبين المدن الدويلات الإغريقية نفسها، ومضيفا بأن للآثينيين تجارب سابقة في الانقسام وفي المصالحة وكان بإمكانهم بالتالي، إعطاء دروس رائعة للآخرين[2]، لإدراكهم أنهم يخدمون مصالح المدينة[3] .

4- نظرية الوحدة والزعامة السياسية عند إيزوقراط

يمكننا القول بأن المؤلفات التي ظهرت في نهاية القرن 5 وبداية 4 ق.م، ساهمت في بلورة الفكر السياسي لدى إيزوقراط، ومكنته، بين سنتي 405 و 390 ق.م، من العناصر الأساسية لمشروعه الذي ظل يدافع عنه طيلة نصف قرن من حياته. فقد كان قارئا متمعنا لمؤلف توسيديد " الحرب البيلوبونيزية"، وإن لم يكن قد وصل إلى عمق فكر هذا الأخير، ووجدت بينهما تباينات في الصيغ التعبيرية، إذ نلاحظ أنه في العديد من المقاطع[4]اقتبس عن توسيديد وقائع بل وأحكاما أدخل عليها تعديلات وفق طروحاته[5]. كما تأثر إيزوقراط بأفكار وتعاليم سقراط، إذ أن انشغاله بالجمع بين السياسة والأخلاق له صلة وثيقة بفكرة البحث عن الحقيقة الأخلاقية التي شكلت أساس تعاليم سقراط خلال السنوات الأخيرة من حياته.

من جهة أخرى، ساهمت أحداث نهاية القرن 5 ق.م وبداية 4 ق.م، في تكوين فكر إيزوقراط وتوجيه حياته، ومن بين هذه الأحداث نذكر ذكريات الحرب البيلوبونيزية ثم حرب ديسيلي (Décélie)، حيث بدا معاديا لأي صراع بين الإغريق ومشمئزا من سكان طيبة، الذين كانوا طيلة فترة الحرب البيلوبونيزية أشد الخصوم عداء لآثينا[6]. كما تأثر بأفكار الجناح المعتدل للحزب الديموقراطي الآثيني الذي كان يتزعمه تيرامين(

---

[1]- Id, 68.
[2]- Id, 44.
[3]- Id, 2.
[4]- خاصة في Panégyrique, 46 و في Sur la Paix, 86, 115 و Panathénaïque,57 .
[5]- Mathieu (G), Isocrate et Thucydide, Revue de Philologie, n 42, 1918, pp. 124-129.
[6]-Plataique et Archidamos et Philippe, 43, 44, 53-55.

Théramène)، وتعاطف مع دعوته لإصلاح النظام الديموقراطي، فجاءت مواقف الرجلين متشابهة.[1]

هذه باختصار، أهم التأثيرات التي ساهمت في تطوير مسيرة إيزوقراط الفكرية، فقد أصبحت انشغالاته ذات سمة فلسفية وسياسية، بعد أن كان مجرد كاتب مرافعات قضائية، فانتقل من تلقين الأفكار الأدبية أو التعليمية إلى تلقين فن الخطابة، حيث أضحى تعليم إيزوقراط يمثل فلسفة في حد ذاته، وأضحت الكلمة عنده تعني الفصاحة والجدل، كما تدل على كل الانشغالات الفكرية المتداولة بين السفسطائيين آنذاك[2]، لدرجة أنه رأى في تعليمه" فلسفة جديرة بهذا الاسم"[3] وتمثل السياسة جزءا أساسيا منها. لذا طمح إيزوقراط منذ البداية، إلى منح القادة السياسيين صيغا تعبيرية لعرض أفكارهم الشخصية، وكذا تقديم توجيهات عامة للحكومة في علاقاتها الخارجية، لكن ما كان ينقص توجيهاته هو الدقة في تحديد الوسائل العملية لتنفيذها، وهي صفة أساسية ميزت شخصية إيزوقراط، لأنه كان يعتبر أن الفكرة أساسية أكثر من الفعل، بل إنها في حد ذاتها فعل كاف، فإذا ما تم التعبير عنها بشكل موفق ستعطي بدون شك النتائج المرجوة[4]، وثقته بقوة الفكرة هذه جعلته يصرح في سنة 346 ق.م، باقتناعه أن الوسيلة الفعالة لتحقيق سلام بين مقدونيا وآثينا، هي نشر خطابه الذي سماه ب: " Philippe "، حيث قال مخاطبا الملك المقدوني فيليب : " (...) بعد شيوع خطابي هذا بين عموم الإغريق، سوف تغير موقفك وتضع حدا للحرب وتتوصل مع الإغريق إلى حلول مرضية بالنسبة للجميع".[5]

[1]- Aréopagitique, 16; et Aristote, Constitution d'Athènes, 29, 3.
[2]- Contre les Sophistes, 1,11; Hélène, 6, 66; Busiris, 1.
[3]- Sur l'Echange, 270.
[4]-Id, 257.
[5]- Philippe, 7.

لقد اهتم إيزوقراط من خلال خطاباته بقضايا الحياة الاجتماعية والسياسية مع تميزه بخاصية أساسية تجلت في تفاؤله دون أن يصل به الأمر إلى القول بأن أمور الإغريق وقضاياهم كانت إيجابية، إذ لم يبد إيزوقراط قاسيا في وصفه لحالة بلاد اليونان آنذاك، بل حاول على الدوام إقناع القارئ بأنه وجد الحل الناجع في إحداث إصلاح أخلاقي حقيقي يؤدي فيما بعد إلى تحقيق مصالحة وطنية وسعادة شاملة[1]. وتملك خطابات إيزوقراط من القوة ما يجعلها قادرة على إقناع قادة الدولة بضرورة إدخال هذا الإصلاح الأخلاقي في الممارسة السياسية، وإقناع العامة بالتالي على قبوله، لذلك اعتبر نفسه مبتكر هذا النوع من الخطاب بسبب إتقانه له وإبداعه فيه، وكذا نتيجة للتأثير الكبير الذي مارسته تلك الخطابات على عموم الجمهور، إذ كانت" تزاوج بين الشكل الفني من جهة وبين النظريات السياسية العامة من جهة أخرى"[2]، حيث كان الخطيب يركز من خلالها على أحد هذين العنصرين حسب الظروف: فنراه يهتم مثلا في خطابه المعروف باسم: " Sur l'Echange " بإتقان الشكل لما قارن بين خطاباته وبين الشعر الغنائي والمرافعات القضائية[3]. غير أن أفضل تعريف نلمسه للخطابات الإيزوقراطية على مستوى الأفكار جاء في خطابه المعنون ب: " Panathénaïque "، الذي استعرض فيه أفكارا عميقة مستعينا بالروايات التاريخية ومحللا أفكارا عامة في الأخلاق والسياسة دون الامتناع عن تحوير الحقيقة لاستخلاص الدروس والعبر الأخلاقية.

وفي سنة 380 ق.م، أصبح انشغال إيزوقراط منصبا على تثبيت أحقية آثينا في الهيمنة على بلاد اليونان، لنلمس لديه بعد ذلك (بين سنتي 342 ق.م و 339 ق.م) فكرة التقريب بين طيبة وآثينا واضحة[4]. هذا التحول الكبير في مواقف إيزوقراط، جعل إنتاجه يبتعد عن فهم توسيديد لكل إنتاج فكري، فقد أراد هذا الأخير إعطاء أفكاره

---

[1]- Mathieu (G), Les Idées politiques d'Isocrate, p. 35.
[2]- Id, 3, 65.et Philippe, 93-94.
[3]- Sur l'Echange, 46.
[4] ـ حيث كان يرى فيها الخطيب وسيلة لتهيئ وحدة بلاد اليونان تحت قيادة Philippe من أجل محاربة الفرس.

قيمة أبدية[1]، وغياب هذا الفهم في إنتاج إيزوقراط، جعله يرى أن كل فكرة ملازمة لسياق خاص في الزمان والمكان، ولتحفزها لا بد لها من العزيمة القوية والمحركة.[2]

هكذا وضع إيزوقراط مشروعا لإصلاح الحياة السياسية والأخلاقية في عصره، ولضمان سعادة المواطنين بأن يجعلهم يقبلون بكل النظريات والأفكار الهادفة إلى تحقيق الوحدة الإغريقية، غير أن بحثه عن النجاح على مستوى الإبداع الأدبي كان يبعده دائما عن الدقة في تحديد الوسائل العملية لتحقيق مشروعه.

ونظرا لميل الخطيب إلى الأفكار العامة، فقد اهتم بالقضايا الهيلينية خاصة علاقات الإغريق فيما بينهم من جهة، وعلاقات هؤلاء الأخيرين مع الفرس من جهة أخرى، وتستند آراؤه إلى التعارض الحاصل بين الإغريق والأجانب والذي لا يمكن التقليل من شأنه، فهو يرى بأن للإغريق خصوصيات وغايات مشتركة وأن خلافاتهم لا تمثل إلا حوادث عابرة رغم اتخاذها أحيانا شكل حروب أهلية. واعتقاد إيزوقراط بوحدة العنصر الإغريقي متجذر في فكره ويمثل إحدى خاصيات خطابه السياسي، إذ في نظره، من واجب كل الإغريق إظهار أن لهم أهدافا واحدة وأن بلاد اليونان تعاني كثيرا بسبب بذور انشقاقهم، أي أن وحدة العرق، بالنسبة لإيزوقراط كما بالنسبة لكل الإغريق، قضية جوهرية، وأن الأجانب هم أقل مرتبة من الإغريق[3]. غير أن هناك مقوما آخر أهم من وحدة العرق، حسب إيزوقراط، هو وحدة الحضارة التي جعلت من الإغريق مجموعة بشرية متميزة، فهو يؤكد بأن "الهيلينية" (Hellénisme) حضارة ونمط تفكير أكثر من أي شيء آخر[4]. وقد رأى في وطنه آثينا، النموذج المثالي للهيلينية وانساق في ذلك، وراء التيار الذي مثله الكتاب الآثينيون في نهاية القرن 5 ق.م، لما اعتبرها "مركزا لبلاد

[1]- توسيديد، المصدر، الكتاب الأول، 22، 4.

[2]- Sur l'Echange, 186-187.

[3]- Panégyrique, 150 et suiv; Philippe, 124.

[4]- Panégyrique, 50.

اليونان "[1]، وحينما كان يثني على خصال آثينا، كانت بالفعل المركز الحقيقي للإشعاع الفكري الإغريقي.

وبما أن الإغريق كانوا يشتركون في نفس المقومات الحضارية، وإن بدرجات متفاوتة، فقد دعاهم باستمرار لإحلال السلام فيما بينهم، إذ دعا في أواخر حياته كبار القادة السياسيين إلى ضمان سعادة الإغريق[2] وتمتين العلاقات بين الآثينيين وحلفائهم واستتباب النظام لتحقيق رخاء وازدهار عموم العالم الإغريقي، فأثنى بحرارة على إيجابيات هذا السلم[3] مع ذكر شروطه، ومن أهمها ضمان سيادة واستقلال كل دولة مدينة.

فإحساس إيزوقراط بالوحدة الإغريقية، يفضي إلى نتيجة أخرى تتمثل في استنكاره لاستعمال العنف ضد بعض المدن الدويلات الإغريقية، حتى وإن كان هذا السلوك يهدف إلى خدمة قضية السلام، إذ ليس هناك في نظره أفضل من نهج أسلوب الإقناع تجاه الإغريق، وهو ما دفعه إلى تأليف خطاب "Plataique " للدفاع عن سكان Platée الذين تعرضوا للقمع من طرف قوة طيبة[4]. فحب السلام ونبذ الحرب، في نظره، هما اللذان يضمنان استقلال دويلات المدن، إذ ليس هناك أي تعارض بين استقلال المدن الإغريقية وبين توحدها في صراعها ضد الأجانب.

لقد كان هدف إيزوقراط، تحقيق سعادة المواطنين الإغريق وليس إعادة تنظيم كلي للأوضاع السياسية والاجتماعية للعالم الإغريقي، ومن هنا نلاحظ أن مشروعه يتجاوز حدود دولة المدينة، مع احترامه لاستقلال وخصوصية كل مدينة، وإبعاده ولو نظريا، فكرة ممارسة القوة تجاه المدن الإغريقية.

---

[1]- Sur l'Echange, 299.
[2]- Philippe, 130.
[3]- Sur la Paix, 18-19.
[4]- Plataique, 18-20.

لقد كانت أفكار إيزوقراط حول قضايا المصالحة والوحدة الهيلينية تمثل كلا مبهما وغير دقيق. وكانت دعواته تفتقر إلى الآلية التطبيقية دائما وإلى مبادئ أخرى تحددها وتوضحها. كما نلاحظ أن مشروعه جاء مرفوقا بأحكام ومواقف شخصية استحضرت تجارب ملموسة، وهو المشروع الذي شغل فكره بين سنتي 380و 338 ق.م، مما يعكس التباينات الواضحة في خطاباته. إن ما يتغير ليس مشروعه في كليته، بل أحكامه ومواقفه تجاه مدينة آثينا هي التي عرفت تغيرات متتالية : ففي سنة 380 ق.م، أظهر الخطيب تفاؤلا تجاه آثينا حينما كانت لا تمارس أي هيمنة، وبدا أكثر انتقادا لها حينما دخلت المدينة في مواجهة مع بعض مدن الحلف الجديد، ثم استبشر بعد ذلك سنة 340 ق.م، لما أحس بأن قوة فيليب قد أبعدت شبح السياسة الإمبريالية الآثينية. وهكذا بدأت مواقفه وأحكامه تتغير تجاه الأحداث بحسب الظروف فيما ظلت نظريته ثابتة.

ومن جهة أخرى، وبالرغم من إشادة إيزوقراط بمزايا سيادة آثينا، فإن الحروب المتتالية بين المدن الدويلات الإغريقية جعلته يشعر بالإحباط، مما دفع به إلى التفكير فيما بعد، في قدرة بعض الأمراء الذين لهم من التأثير الشخصي ما يكفي لفرض سلطتهم على مجموع بلاد الإغريق وربما لقيادتها ضد الفرس. وهكذا وقع اختياره في البداية على رجل الميدان تيموتي (Timothée)، الذي كان أحد تلامذته وقائدا عسكريا آثينيا، ورأى فيه إيزوقراط الرجل المناسب لقيادة الكونفدرالية الآثينية الثانية، متمنيا أن تجد فيه آثينا بيريكليسا جديدا. لكن حدوث بعض المشاكل جعلت تيموتي يفر إلىLesbos سنة 373 ق.م. ثم توجه الخطيب بدعوته بعد ذلك إلى قادة بعض الدول الأجنبية، مثل فيليب المقدوني، الذي تمنى إيزوقراط أن يكون هو" القائد المنشود إذا ما أبدى اعتدالا تجاه الإغريق"[1]. لذلك وضع الخطيب ثقته في الملك المقدوني، وهو ما عكسه خطابه

[1]- Sur la Paix, 22.

المسمى ب: "Philippe" في سنة 346 ق.م[1]. إذ بدأ إيزوقراط يصرف نظره عن روح وطنيته الآثينية، حيث يمكن، في نظره، التضحية بكل شيء في سبيل إنجاح وتحقيق برنامجه الذي بقي ثابتا دون تغير، إذا ما احتُرمت سيادة المدن الدويلات وتُركت الديموقراطية تتطور في إطار الملكية، مؤكدا أن حلمه سيتحقق على يد قائد يتمتع بسلطات مطلقة[2].

لكن فشلت كل محاولات إيزوقراط لإيجاد قائد للحلف الهيليني من خارج آثينا بسبب وفاة بعض القادة وانقسام الإغريق على أنفسهم وبسبب تدخل الملك الفارسي في الشؤون الهيلينية. وقد دفعت كل هذه المستجدات بإيزوقراط إلى إعادة التفكير في وسائل أخرى لتنفيذ هدفه الأسمى، ومن أهمها العودة من جديد إلى الديموقراطية الآثينية.

5- الزعامة الآثينية

لقد عرض إيزوقراط في خطابه المعنون ب: "Panégyrique"، ما تتوفر عليه آثينا من المؤهلات التي خولت لها الهيمنة على بلاد اليونان، و من ذلك رقي ثقافتها والخدمات الجليلة التي قدمتها إبان الحروب الميدية دفاعا عن سلامة وحرية الإغريق. والأهم في نظره، هو أن هيمنة آثينا كانت معتدلة نسبيا، وعليها أن تكون في المستقبل أكثر اعتدالا مع حرصها على عدم المساس بحقوق المدن الدويلات الحليفة.

بعد هذا الخطاب، الذي كان له دون شك وقع قوي، تشكل الحلف البحري الثاني بقيادة آثينا بناء على مؤهلاتها السالفة الذكر، إذ لم تفرض آثينا إتاوات ولم تنشئ معسكرات أو مستوطنات داخل المدن الحليفة، لكنها فشلت في أن تجعل سلطتها مقبولة من طرف الحلفاء، بل إن بعضهم حاربها مما خلق شعورا بالإحباط وخيبة أمل لدى إيزوقراط، الذي آخذ على آثينا أخطاءها في خطابه الموسوم ب: "Sur la Paix" (سنة

[1] - توافق سنة 346 ق.م تاريخ عقد سلم Philocrate بين آثينا وفيليب، ليتجدد الصراع بينهما سنة 340 ق.م الذي انتهى بهزيمة آثينا في Chéronée سنة 338 ق.م.

[2]- Philippe, 13-14.

355 ق.م) والذي أرجع فيه أسباب تلك الأخطاء إلى تجاوزات آثينا في ممارسة السلطة، وهي نفس أخطائها في الماضي والتي قضت على قوتها وأنهت هيبة اسبارطا فيما بعد. فنحن إذن، أمام انبثاق نظرية كاملة لتبرير استعمال القوة، وفلسفة جديدة للتاريخ من وجهة نظر الخطيب برزت فيما بعد، في كل خطاباته وأعماله الأخرى.

وجه إيزوقراط في الخطاب نفسه نصيحة إلى الآثينيين لعقد السلم مع حلفائهم الثائرين في شكل إصلاح عام للسياسة الآثينية[1]، لكن هذه النصائح الإيجابية لم تشغل إلا حيزا ضيقا في هذا الخطاب مقابل الانتقادات التي وجهها للسياسة المتبعة من طرف آثينا، ومن ذلك فرضها إتاوات مجحفة على الحلفاء وتكوين مستوطنات آثينية على أراضي مدنهم بالإضافة إلى التدخل الآثيني السافر في السياسات الداخلية لتلك المدن، وما ترتب عن ذلك من حروب أهلية وتهديدات دائمة للاستقرار[2].

إن مثل هذه السياسة في نظر إيزوقراط، ستؤدي إلى إنهاك ودمار المدينة، ومع ذلك فإن تفاؤله جعله يعتقد أن هذه الحالة لها علاجها، إذ في حالة ما إذا تخلت آثينا عن إمبراطورية مبنية على أساس القوة والعنف، فستبقى إمكانية تحقيق وحدة الإغريق قائمة، لذلك ضمن خطابه المذكور: " Sur La Paix "، عددا من الأفكار التي تهم السياسة الداخلية لآثينا، حيث لا يشكل السلم في نظره، إلا بداية لإصلاح كامل لكل الأنشطة السياسية الآثينية[3]، وأن إصلاح سياسة الدولة ستكون فائدته شاملة.

وفي سياق تناولنا لأفكار إيزوقراط وعلاقتها بالأحداث السياسية المعاصرة، نرى من الضروري الإشارة إلى مكانة الخطيب في تأثيره على الحياة السياسية في القرن 4 ق.م، ونسجل أنه منذ الربع الأخير من القرن العشرين، أصبح المؤرخون المعاصرون يرون فيه

[1]- Sur la Paix, 15.
[2]- Sur La Paix, 44-48; Lettre, 9 ; 8-10 ; et plus tard Philippe, 120-121.
[3]- Sur La Paix, 15.

ذلك الأديب الذكي الذي تميز ببعد نظره والمفكر السياسي الأكثر تأثيرا خلال القرن 4 ق.م.

وإذا كان لديموستين (Démosthène)، حضور مباشر في الممارسة السياسية فإن إيزوقراط يفتقد لخاصيات التأثير المباشر في المحافل السياسية، كما أن تفكيره لم يصل إلى مستوى عمق تفكير أفلاطون الذي صنف إيزوقراط "في مرتبة وسطى بين الفلاسفة ورجال السياسة "[1]، أي بين الخطيب المنشغل بجديد كل يوم وبين عمل المنظر المنحصر في التأمل وإعمال الفكر، لأنه شغل مكان الكاتب المهتم بتعبئة الجمهور لإعادة تنظيم العالم الإغريقي.

تبلورت الخطوط العريضة لمشروع إيزوقراط قبل سنة 380 ق.م، وهو المشروع الذي كانت غايته في النهاية تحقيق رخاء وازدهار الوطن الإغريقي، واهتم منذ ذلك الحين بحث الإغريق على تبني مشروعه، لأنه كان يدرك بأن أفكاره لا يمكن أن تنفذ من دون مبادرة مدينة أو قائد دولة ما، وأن سير الأحداث هو الذي سيحدد أولويات مكونات مشروعه. لذا نجده يغير مواقفه من حين لآخر حتى ظهر فيليب المقدوني، كحكم في الفصل في نزاعات الإغريق، وجه إليه إيزوقراط دعوته لتحقيق مشروعه، وحتى لا يضحي بوطنه اليونان وبآثينا، دعاه إلى تشكيل كونفدرالية مكونة من دويلات مستقلة و ذات سيادة. ولا يمكننا وصف هذا التغيير في المواقف بالتناقض، بل هو راجع لانشغال الخطيب بضرورة الاستفادة من مستجدات الساحة السياسية لإنجاز أقصى ما يمكن من مشروعه.

قد يبدو هذا الإصرار وهذه المثابرة أمرا ساذجا في الظاهر، فأدلة إيزوقراط ذات الطابع الأخلاقي، والطريقة التي يعرضها بها ويكررها في كل خطاب، والثقة التي يضعها في القيم والزعماء، لا تحمل إلا نسبة ضئيلة من الواقعية. لكن مع ذلك، فإن

[1]- Platon, Euthydème, 304E.

الفكر الذي ردد إيزوقراط صداه، لم يكن نتيجة أحلام خيالية أو دون جدوى، بل إذا أمعنا النظر، سنلاحظ أن هناك تفاصيل متضمنة في مشروعه، كما تحقق بعضها من خلال وقائع القرن 4 ق.م، كما لا يمكننا الجزم بأن تأثير إيزوقراط في الحياة السياسية الإغريقية كان ضعيفا ، لأن النتائج المباشرة لدعواته السياسية، كانت ذات أثر كبير بالمقارنة مع عمل الفلاسفة وخطباء عصره. وما يزكي هذه الحقيقة هو أن الحلف الآثيني الثاني استنبط من ذلك الفكر الذي ظل ينادي به إيزوقراط طيلة خمسين سنة الأخيرة من حياته، كما أن سياسة Timothée استوحيت من فكره أيضا. وحتى وإن كان فيليب منافسا عنيدا ومتصلبا في تعامله مع الإغريق، فإن حلف كورانتا(Corinthe) الذي تأسس بعد هزيمة خيرونيا(Chéronée) قد وحد الإغريق لغزو آسيا مع اعتراف كورانتا بحقوقهم بالصورة التي نادى بها إيزوقراط. كما أن حلمه لتحقيق وحدة الإغريق تطابق مع الميل الجديد نحو خلق اتحادات وأحلاف، حيث أضحى النموذج السياسي لدولة المدينة متجاوزا، غير أن هذا التحول سوف يكون في صالح فيليب المقدوني الذي لم يكن يولي أي احترام لخصوصيات الإغريق السياسية.

وعموما، فإن كل مفكري بداية القرن 4 ق.م، الذين اهتموا بقضية المصالحة الوطنية وعلى رأسهم إيزوقراط، أثاروا هذه القضية من جانبها السياسي، حينها كان إيزوقراط يحث على المصالحة وعلى مدح دستور الأجداد[1]. لذا وحتى وإن كان يتخوف من حدوث انقسامات اجتماعية قد تنسف كيان الدولة[2]، فهو لم يعد مطمئنا لحثه على المصالحة داخل المدينة، إذ أصبح من الضروري في اعتقاده، إغناء هذه المصالحة بسمات هيلينية وبالتالي وضع هذا النموذج من المصالحة ضمن الأولويات الأساسية لمشروعه[3]، وإن كانت هذه المصالحة تحتاج إلى آلية أكثر واقعية، لأن الإغريق الذين توحدوا في

[1]- Romilly (J De), vocabulaire et propagande ou les premiers emplois du mot (concorde), Mélanges de linguistique et de philologie offerts à Pierre chantraine, 1972,p. 199-209.
[2]-Archidamos, 67. Voir aussi Mossé (C), Sur un passage de" l'Archidamos" d'Isocrate, R.E.A, LV, ne 1-2, 1953, p.29-35.
[3]- Lévy (E), op.cit, p. 222.

الماضي لإنقاذ وتحرير هيلين[1] أو لتحرير وطنهم من الغزاة[2]، "عليهم اليوم أن يتحدوا لمحاربة الفرس والانتصار عليهم"[3]. لهذا كان إيزوقراط، دون شك، يفكر في وفاق اجتماعي مبني على شروط اقتصادية وسياسية وديموغرافية جديدة، ويتمنى تخليص المدن الإغريقية من الانقسام والحروب[4]. وإذا كان هذا هو هدفه الرئيس، فستكون دعواته المتكررة إلى التضامن الهيليني وكراهية الأجنبي ذات سمة رمزية وأقل فاعلية من رغبته في إنجاز مصالحة داخل المدينة الواحدة[5]، من ثمة تبقى فكرة المصالحة، بالنسبة إليه، غير كاملة، ويتم الحفاظ عليها، إما بتجاوزها أو بإغنائها بمشروع الوحدة الهيلينية.

وبالإجمال، يرجع فشل مشروع إيزوقراط بالأساس إلى تأثير الأحداث الخارجية الكبرى، وإلى افتقاره إلى الجانب العملي فيه، لكن مع ذلك شغل إيزوقراط مكانة متميزة بين معاصريه، حيث تداخلت أفكاره ضمن مشروع كامل، كما كان لها تأثير جلي على رأي المواطن الإغريقي، إذ عكس هذا الخطيب صورة مجملة لأهم التيارات الفكرية التي ساهمت في تغيير ملامح العالم اليوناني بين سنتي 400 ق.م و 330 ق.م.

[1] - صرح إيزوقراط في خطابه"Eloge d'Hélène "، 67 ، قائلا : " نعترف أننا بفضل هيلين لم نستعبد من طرف الأجانب، كما اتفق كل الإغريق بفضلها على توجيه حملة موحدة ضدهم".

[2]- Panégyrique, 85.

[3] - Philippe، 16 وفي خطابه Echange ،77.

[4] - يؤكد إيزوقراط في خطابه Panégyrique، 174، بأنه" حينما لا نستطيع إزالة الفقر الذي يدمر الجماعات الصديقة ويدفع الناس إلى الكراهية وبالتالي إلى الحروب، فلا يمكن أن نعرف وفاقا حقيقيا ومشاعر طيبة بعضنا تجاه البعض الآخر". وقد أكدت المؤرخة C.Mossé هذه الفكرة في مؤلفها La fin de la démocratie athénienne, p. 436. حينما رأت " بأن فكرة الوحدة الهيلينية عند إيزوقراط تتأكد ليس كمبدأ مطلق ولكن كشرط أساسي لاستتباب السلم الاجتماعي والتوازن السياسي في بلاد اليونان".

[5]- Lévy (E), op.cit, p. 222.